مقالات باكون

٣ — الانتقام

وما مات منا سيّدٌ حتفَ أنفهِ ولا طُلَّ منا حيث كان قتيلُ

الانتقام عدالة الوحشيين . واذا امتزج حبهُ بالنفوس يكون كالسُّم خالط الشراب ؛ لأن من يقترف ذنباً يضرُّ بنظام الشرائع ؛ وأما من حقد على عدوّ له ، وأخذ بثأر قتيلٍ ، أو شرفٍ ناله أذى ، فانهُ ينتزع سلطة الشرائع ويعبث بها

على أن من قابل السيئة بالحسنة ، وعفا عمن أذنب ، فقد أمسى كريماً ، لأن العفو من شيم الكرام . وأما من استكبر ، وقابل الاساءة باختها ، فقد حطَّ من مقدار نفسهِ ، ووضعها ونفسَ المسيء على بساط المساواة . وقد كان سليمان الحكيم يقول : ان الجنة مأوى الغفور

وما الانتقام الا تمرّد في النفس قد أنبته ذنب انقضى عهده . فما لنا وذلك الماضي الذي فات ، وخير لنا أن نعني بيومنا وغدنا من أن ننظر في شأن أمور كانت بالأمس

وليس الظلم من شيم النفوس ، انما حب النفس يدفع الناس الى الظلم والشر . فكل يظلم لمغنم يستجلبه ، أو لحاجة في نفسه يقضيها ، او لنيل شرفٍ يسعى ليدركه . فماذا علينا من رجل يحب الخير لنفسهِ ، ويكرههُ لغيره . أما من يظلم الناس ليشفي غليلاً في الفؤاد ، لان الشرّ

كامن في نفسهِ كمون الكهرباء في الاجساد ، فهو خليق بالرحمة والغفران ، لانهُ كالافعى ليس لديها الأ سمها

ولقد يُزكى الانتقام ، اذا كان لذنبٍ لا ينال المذنبَ عليهِ عقاب سوى الأخذ بالثأر . على ان الانتقام في مثل هذه الحال جدير بأن لا يكون ذنباً يقع آتيه تحت طائلة العقاب والا يكون المنتقم قد ألقى بنفسه في التهلكة وأصابه الشر مرتين

وأشرف أنواع الانتقام ما كان على مرأى من الناس ومسمع . فليس الغرض من الانتقام ان ترد الاساءة الى من أساء اليك ، ، انما الغرض ان يتوب المسيء عن الاساءة ، ويعلم ان هذه بتلك والبادئ أظلم . وقد ينتقم الجبان لنفسه تحت طي الخفاء ، فيكون كالسهم أرسلته القوس تحت جنح الظلام

وقد يعفو الناس عن المسيء ان كان عدواً لدوداً ، ولكنهم لا يلتمسون للصديق عذراً ، اذا نقض عهداً ، او خان وداً

ومن الناس من يفتأ يذكر الثار والانتقام ، فيبقى جرح نفسه غير ملتئم أمداً فيقضي عمره بين الهم والكدر . ولو أنه نسي ما فات لالتأمت جراحه

وقد يقوم المنتقم للانتقام وهو آمن شر العاقبة ، لأن الله يعضده والناس ، وذلك اذا كان المأخوذ بثأره كبيراً بين قومه ، قد غدره اعداؤه وأوقعوا بهِ ظلماً . فقد هبّ اغسطس قيصر للانتقام ممن أراقوا دم يوليوس قيصر ، فعضده أهل رومة وأخذوا بيده وحكموه فيهم

٤ — الدرس والمطالعة

ان للدرس والمطالعة نفعاً كبيراً : فان الخلوة بالكتاب تشرح الصدر وتحسن الحديث وتزيد القارئ علماً وعرفاناً . وأيُّ شيءٍ أحبُّ الى من هجر الدنيا ومن عليها من كتاب يجلس اليهِ ؟ وأيُّ شيءٍ أنفع الى رجلٍ يحبّ اذا ما فاه ان يفوه بالقول البليغ من كتاب يحسّن لفظه ؟ وأيُّ شيءٍ يعلم رجل الدنيا كيف يسير في الدنيا غير كتاب مفيد ؟ وانك لا تجد رجلاً يدبر أُمور غيره وينظر بشؤون أمته ويأخذ على عاتقه عبئاً ثقيلاً ، الاّ وهو على بيّنة من العلم ، ونصيبه من المعرفة وافر

على ان لكل نافع ضرًّا . وليس ضرُّ العلم بناشئ منه . انما يعاب صاحبه اذا لم يسلم من ثلاث : الافراط فيهِ والاعجاب ومزج العلم بالعمل. فان الاكثار من الدرس والمطالعة والعلم يورث الخمول . وانك ان حاولت إظهار معرفتك في حديثك فقد عرّضت نفسك للنقد واللوم . وانك ان شئت ان تسير في عملك وفقاً لغرض علمك فانك لا تستطيع

وليس الغرض من العلم ان يكون كل بضاعتك ؛ انما هو كالصقل لليماني ، فانه يشحذ القرائح ويخرج القوى الكامنة في النفس فتبدو كالأحجار الكريمة اذا أخرجها العامل من جوف الارض او قاع البحر وصقلها فبدت محاسنها وخفيت عيوبها . على ان العلم في حاجة الى التدريب وليس يكفيك ان تكون ذا علم واسع ان لم تكن قد هذبتك الأيام وأمسيت لمعول الحوادث صفاً صلداً . لأن العلم كالأسد المصور لا تستطيع أسره الاّ اذا كبلته بقيود من اختبار

وقد يكون أحدنا ماكراً ختلاً مخادعاً ، فيسخر بالعلم ويسكن الى خداعه ومكره لأنهما يمكنانه مما يريد . وقد يندهش الجاهل منه . انما لا يستطيع ان ينتفع به الاَّ العاقل الحكيم . فانهُ يعلم علم اليقين أنَّ العلم ليس الاّ مشكاةً يستضيءُ بها في ديجور هذه الحياة الدنيا فعليها النور وعليهِ المسير

وليس الغرض من المطالعة ان تنتقد قول المؤلف او تنقض آراءه ، او لتأخذ كلامه قضية مسلمة لا نزاع فيها ، او لتتمشدق بما قرأته على رؤوس الاشهاد ، لتُظهر للملأ أنك تقرأُ الكتب ؛ انما الغرض ان تزن أبحاث الكاتب وتمعن النظر في مقدماته ونتائجه

على ان الكتب كالطعام : بعضه تذوقه ولا تأكله ، وبعضه تلتهمه التهاماً ، وبعضه تلوكه وتهضمه هضماً . فبعضها تقرأ زبده ، وبعضها تطالعه بلا امعان كثير ، وبعضها تطالعه وتدرسه درساً دقيقاً وتمحصه تمحيصاً

وفي مطالعة الكتب منافع غير التي ذكرت ثلاث . فالدرس يدّخر منهُ العقل حكمة . فالدرس يمدّ العقل بالحكمة فيدّخرها ، والجدل يشحذ الذهن ويوقد القريحة ، والاقتباس يورث الدقة والاتقان . فاذا كنت ممن لا يطالعون كثيراً ، فانت في حاجة الى ذكاء تخفي به جهلك ؛ وان كنت ممن يفضلون راحة البال على الجدل والمناقشة ، فانت أحوج الناس الى ذهن حادّ يدلك على كلام تلقى به حجة خصمك ؛ وان كنت قليل الاقتباس فانت في حاجة الى حافظة شديدة تتقي بها شرَّ النسيان

وكل فرع من شجرة الحكمة يوسع دائرة من دوائر العقل . فالتاريخ

يعلّم الناس فنّ السياسة ، والشعر يولّد الآراء السامية ، وفنّ الرياضيات يعلّم الدقة ، والعلوم الطبيعية تكون واسطة للتبحر في العلم ، والفلسفة الأدبية تورث الحزم والثبات ، والمنطق والبلاغة يقرّبان المرء من المقدرة على الخطابة والمناظرة

وليس في العقول نقص لا يكمله العلم ، او عاهة لا تشفيها الحكمة . وكما ان لكل داءٍ من ادواء الجسم دواءً يشفيهِ فالمشي ذهاباً وجيئة ينفع الامعاء ، وركوب الخيل يشفي المخ ، والرماية تصلح الرئتين . فمن كان قليل الانتباه فدعه يدرس الرياضيات فانهُ ان سها او نسي او أخطأ فيها مرةً ، تكبد مشقة العمل ثانياً ، وان آنس من نفسه عجزاً في الاستنتاج فدعه يصرف قليل وقت في مطالعة المناظرات الدينية . وان أحس من نفسه بضعف في ضرب الامثال فدعه يقرأ كتب الشرائع والقوانين

محمد لطفي جمعة المحامي

المودّة الكاذبة

ان أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ، ويتواصلون عليهما ؛ وهما ذات النفس ، وذات اليد . فالمتبادلون ذات النفس هم الأصفياء . وأما المتبادلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض . ومن كان يصنع المعروف ببعض منافع الدنيا ، فانما مثلهُ فيما يبذل ويُعطي كمثل الصياد والقائهِ الحبّ للطير ، لا يريد بذلك نفعَ الطير وانما يريد نفع نفسه

(ابن المقفّع)